

غاندي وروح الحقيقة

15-10-2020، د. عبد الحسين شعبان

"الرجل الذي يطمح إلى معرفة روح الحقيقة لا يستطيع أن يعتزل الحياة...". هذا ما قاله غاندي، وروح الحقيقة التي كان يطمح إليها هي "تغيير رأي الشعب البريطاني من خلال اللاعنف لأجلهم يرون الخطأ الذي ارتكبه تجاه الهند" كما يقول في رسالة وجهها إلى نائب الملك البريطاني اللورد إيروين، وذلك بعد مسيرة الساتياغراها التي تعني المقاومة السلمية لنيل الحقوق بلا مهادنة أو مساومة، كما يعتقد البعض خطأً، فقد بدأ مسيرة الملح مع مجموعة صغيرة من أتباعه يوم أطلق ذلك النداء السحري للعصيان المدني الذي سرعان ما عمّ الهند من أقصاها إلى أقصاها في العام 1930، فتوجهت الجموع مشياً على الأقدام مسافة 390 كم، وقد جعلته تلك الحادثة شخصية عالمية حيث اختارته مجلة التايم Time 1930 شخصية العام .

وكان غاندي قد خاطب البريطانيين "أخرجوا من الهند" وذلك في العام 1942 ودعاهم فيها إلى الانسحاب الفوري من البلاد، لكن السلطات البريطانية اعتقلته لمدة 19 شهراً، ثم أطلقت سراحه بعد وفاة زوجته العام 1944، إلا أنها اضطرت إلى الرضوخ لمطالب حركة غاندي اللاعنفية التي كانت وراء استقلال الهند.

وكانت نقطة التحول في حياة غاندي، هي اعتراض رجل أبيض على وجوده في مقصورة الدرجة الأولى من القطار المتوجه من ديربان إلى بريتوريا على الرغم من حمله تذكرة سفر، وعندما رفض غاندي النزول من القطار والانتقال إلى قطار آخر، سُحب بالقوة وألقي من القطار في محطة أخرى، وكانت تلك اللحظة قد أيقظت في نفسه فكرة العصيان المدني، ورفعت من عزيمته لمحاربة ما أسماه "مرض التحيز اللوني المستعصي" علماً بأنه عاش وعمل محامياً في جنوب أفريقيا نحو 20 عاماً، حيث وصلها في العام 1893.

ومنذ تلك الليلة قطع عهداً على نفسه بأن "يبدل قسارى جهده لاستئصال هذا المرض واحتمال الصعاب في سبيل ذلك"، وهكذا نمت تلك القوة العملاقة الناعمة في داخله لتصبح قوة مادية يصعب

اقتلاعها بفعل إيمان ملايين الهنود بها، ومن ثم لتغدو فلسفة للمقاومة السلمية المدنية اللاعنافية على الصعيد الكوني، تلك التي تربط الوسيلة الشريفة والعدالة بالغاية الشريفة والعدالة، حيث لا انفصال بينهما، لأن شرف الغاية هو من شرف الوسيلة، والعكس صحيح أيضاً، فهما مثل البذرة إلى الشجرة، وهناك علاقة عضوية بين الوسيلة والغاية، وإذا كانت الغاية بعيدة وغير ملموسة، فالوسيلة راهنة وملموسة، لأنها الأكثر تعبيراً عن الغاية.

لقد استمدَّ غاندي أفكاره من الجانتيية، التي هي ديانة هندية قديمة، والجانتي هو "القاهر" لا بمعنى المنتصر على الملذات حسب المعلم بوذا، بل عدم إيذاء أي كائن حي، والتأكيد على نسبة الحق لعدم وجود حق مطلق، وعدم أخذ حق الغير وعدم الكذب وممارسة العفة بإلغاء جميع اللذائذ الخارجية، من مأكول وملبس ونزوات.

وإذا كان غاندي قد نشأ عابداً للإله الهندوسي فيشنو، وأصبح مع مرور الأيام شعلة أمل للمضطهدين والمهمشين في جميع أنحاء العالم، لذلك لم يعد غريباً أن يرشح لجائزة نوبل 5 مرات وأن تطلق بريطانيا طابعاً رمزياً تكريمياً له بمناسبة مرور 21 عاماً على وفاته، وأن تتخذ الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الـ 61 قراراً برقم 271 وفي 15 يونيو (حزيران) 2007، يقضي إحياء ذكرى عيد ميلاده في 2 أكتوبر (تشرين الأول) 1869 من كل عام، باعتبارها يوماً عالمياً لللاعنف، و"مناسبة لنشر رسالة اللاعننف عن طريق التعليم وتوعية الجمهور"، وأكد القرار على الأهمية العالمية لمبدأ اللاعننف والرغبة في تأمين ثقافة السلام والتسامح والتفاهم واللاعنف.

إن كلمة "اللا" لها أكثر من دلالة، فإذا كان المذموم مرفوضاً، أي العنف، فما بالك إذا وضعت أمامه "لا"، حيث يكون النفي مركباً ومضاعفاً والمذموم أكثر ذمماً، واللاعنف سلاح ماض في تناول المظلومين ويستطيع أن يواجه جميع الأسلحة التدميرية، وذلك إبداع إنساني ضد القاعدة السائدة على مر التاريخ، حيث كان العنف عنوانها، خصوصاً بنبذ العنف بجميع أشكاله وصوره، سواء كان مادياً أم معنوياً، قولاً أم فعلاً، واللجوء إلى الحلول السلمية لفض النزاعات والخلافات، وذلك طموح البشرية في تجسيد وحدة الإرادة والعمل لصالح السلام والتسامح و"الأخوة الإنسانية" التي تؤمن بها الأديان والفلسفات المختلفة.

إن ما ءواجهه البشرية اليوم من كوارث صفة مثل كوففد -19 " الكورونا" وحالات الطوارئ المناخفة وانتشار الحروب والنزاعات المسلحة والفقر والجهل والأمة والتخلف، كلفها ءءطلب إشاعة ءقافة السلام والعدل ومنع اسءلال الشعوب وإذلالها ونهب ءرواتها والبحث عن المشترك الإنساني، وذلك من خلال مواجهة خطاب الكراهفة والتعصب وولفدهء ءءطرف وءءاجها العنف والإرهاب، ءءنبأً لأي عنف جسءف أو معنوف، اجتماعف أو سفاسف أو اقءصاءف أو جنءرف أو ضد المجموعاء ءءقافة أو الشعوب الضعفة، لأن العنف سفضاعف من المشكلاء وفافقم من ءعقفءاءها، وسفكون أكثر كارءفياً على الأطفال والنساء والشفوخ.

.....
* الآراء الوارءة فف المقال قء لا ءعبر بالضرورة عن رأف شبكة النباء المنعمومآفة.